قضايا الإنسان والعمران في ضوء القرآن:
مسألتا: الأعراف الدينية والأخلاقية
في بناء الإنسان والأوطان

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 268]

عبد الرحمٰن السالمي

يخاطب القرآن الكريم المؤمنين الذين يواجهون مشكلة الفقر، ويجعل الفقر قريناً للفحشاء، وينسب الأمرين (الفقر والفحشاء) للشيطان، لا بمعنى أنه هو الذي يُحدثُهُما؛ بل بمعنى أنه هو الذي يدفع الفقراء إلى الاضطراب، والتعدي على الممتلكات والأنفس؛ لأنهم يظنون أنّ في ذلك الحلَّ لمشكلات فقرهم وحاجاتهم. وفي مواجهة هذا النهج الغرائزي والعصبي يعطي الله ﷻ «ضمانات» ـ إذا صحَّ التعبير ـ وذلك عندما يقول ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾. فلا داعي لليأس وفقدان الأمل، بحيث تصبح الحاجة مبعثاً على التوحش؛ كأنما أولو القدرة الأقلُّ حاجةً هم المسؤولون الرئيسيون عن احتياجات الفقراء، أو هم المسؤولون عما أصاب ذوي الحاجات من آلامٍ ووجوه بؤس. هناك إذن الفقر المقترن بالتعديات التي تجعل المشكلات أكبر وأعمق، وهناك من جهةٍ أُخرى الوعد الإلهي بالمخرج والفرج، بفضل الله ﷻ وسعة رحمته وعنايته.

وعندنا في هذا الصدد أمران: **واجب** جماعة المؤمنين في التصدي للفقر والتصدي للحاجة المضنية. **والفرقُ** بين القديم والحديث في معالجة مشكلات الحاجات الإنسانية الأساسية.

في **المجال الأول**؛ فإنّ آيات سورة البقرة قبل آية الشيطان واستخدامه للفقر في إحداث الفحشاء (257 ـ 276) تدور حول قضيتين: قضية الخلق والقدرة الإلهية: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]، وقضية الفقر وطرائق مكافحته. في قضية الخلق تُذكر قصة إبراهيم المشهورة مع الإحياء والإماتة وتتوالى مشاهدها. ثم بعد مسألة الخَلْق يدخل القرآن الكريم مباشرةً على قضية الفقر، وكيف يمكن التصدي لها بالتضامن من جانب مجتمع المؤمنين بأُسلوبين: **الأول**: الإنفاق، والإنفاق الكثيف ودون ترددٍ أو منٍّ أو أذى. **والثاني**: التعامُل الإنساني التضامُني من جانب جماعة المؤمنين إعداداً واستعداداً للجوائح ولحالات الفقر التي توجد دائماً. هناك إصرارٌ قرآنيٌّ على أنّ الإنفاق الكثيف والمستمر، ومن جانب الأفراد والجماعات هو الذي يخرج بمشكلة الفقر عن الاستعصاء. والاستعصاء لا يأتي من قلة الإنفاق فقط؛ بل يأتي أيضاً من أخلاق الفقراء، الذين يمكن ألا يتعففوا، ويمكن أن يستجيبوا لوعد الشيطان، ولإغرائه بارتكاب المنكر بوصفه هو الحلّ للمشكلات. أما العملُ التضامني الذي يفتح أُفقاً فهو العمل ذو الطابع الأخلاقي الكبير، ومؤسسة الوقف أحد الأمثلة على ذلك؛ لكنّ الإنفاق المباشر لذوي الحاجة الظاهرة وللمؤسسات يظلُّ مطلوباً. فالقرآن الكريم يخاطب عموم الأفراد، ويستحث كل الجماعات؛ لكنه يضع المسؤوليات الكبرى على عاتق الأفراد أصحاب الرسالة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 274].

وفي حالتي الإنفاق الفردي أو الجماعي يظلُّ واضحاً أنّ الأُفق مفتوحٌ على الله ﷻ ومعه بالمغفرة والرحمة والأجر والتعويض في الدنيا والآخرة؛ ففي

مواجهة وعْدِ الشيطان الناس بالفقر وأمْرِه بالفحشاء، تأتي ثلاثة مصطلحات: الفضل الإلهي والمغفرة والسعة، والتي تنفتح على الفقير والقادر معاً. على الفقير حتى لا ييأس فيلجأ للفحشاء، وعلى القادر المتصدق حتى لا يتذمر أو يشعر بفقدان الثقة واليأس من الحالة الاجتماعية السائدة.

وبعد الأمر بالإنفاق الكثيف، والطلب إلى الفقراء أن يتعففوا، يعالج القرآن مسألتين مهمتين: مسألة الربا، ومسألة الدَين. فالمسألة الربوية تدخُلُ في سياق مكافحة استغلال الفقير. ومسألة الدَين تدخل في باب القرض الحسن. متى يلجأ الإنسان إلى الربا المجحف؟ إذا اشتدّت حاجته، وتعذرت عليه الإفادة من عطف المؤمنين القادرين أفراداً ومؤسسات. ولذلك يهاجم القرآن الربا مهاجمةً قاسيةً؛ لأنه يشكّل استغلالاً لا يمكن قبوله في مجتمعات الأُلفة والتضامُن. ويفرض القرآن أن يستعيد المرء رأس ماله فحسْب، وهذا انضباطٌ لا يقدر عليه إلاّ ذوو التقوى والورع. فإذا لم تسمح نفس المرء القادرة بالإنفاق، فليكن دَيناً وليكن قرضاً حسناً. وهنا تأتي آيةُ الدَين التي هي أطولُ آيات القرآن. وهي لا تتصل مباشرةً بمكافحة الدين؛ بل تتصل بحفظ حقوق الناس، سواء أكانوا فقراء معدمين أم كانوا أوساطاً وتجاراً يترافقون في الأسفار. فالملكية الخاصة أساسٌ في إنسانية الإنسان، وهي تتعلق بالأمانة، وأخلاق الاعتراف. فإذا كان الإنفاقُ الكبير أخلاقاً وثقةً بالله وبالتعويض الدنيوي والأخروي ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ﴾ [البقرة: 265]؛ فإنّ احترام الملكية الخاصة أساسٌ في نظام المجتمع المتضامن، والعلاقات الأخلاقية بين الأفراد.

قلنا من قبل: إنّ السياقات الوسيطة هي سياقاتٌ فرديةٌ واجتماعية. ولذلك فالمطلوب من الأفراد القادرين أن يتدخلوا، والله ﷻ يعوِّض بفضله وسعة عنايته ورحمته. ومجتمعات الرحمة هي مجموعات هؤلاء الأفراد،

والاعتماد عليهم يكون بوصفهم أدوات الله على أرض الناس. أما في الأزمنة الحديثة؛ فإنّ مشكلات الفقر لا تنحلُّ ـ كما كان عليه الأمر سابقاً ـ بتدخُّل الافراد والمؤسسات التي يصنعُها المجتمع. بل إنه حتى الربا لم يعد نظاماً مجحفاً بين فردين أو أكثر؛ لقد صار الربا عالمياً، وصارت ظاهرة الفقر ظاهرةً عالمية. فإلى جانب تدخلات الدول التي زاد دورها في إغاثة مجتمعاتها الخاصة بالتنمية والتدريب، وخلْق فُرَص العمل؛ هناك النظام العالمي الذي يتسبَّبُ جَورُهُ في إصابة مجتمعاتٍ بكاملها بداء الفقر والعوز والمرض. بل صار يقال: إنّ الفقر جغرافي: الجنوب فقير، والشمال غني. ولذلك ظهرت مؤسَّساتٌ دوليةٌ لمكافحة الفقر، وتعقَّدَ مفهوم الإحسان، بل هناك من يقول: إنه لم يعد ممكناً وسط تعامُلات الحيتان المتوحشة.

لا يستطيع الأفراد الفقراء أو الأغنياء التعامل مع النظام العالمي لمكافحة الفقر والعَوَز؛ بل صارت الدولُ هي التي ترعى مجتمعاتها، وهي التي تتوسط بينها وبين النظام العالمي، ووكالاته المتخصصة. ولذلك فقد صار للدولة دورٌ كبيرٌ في داخل مجتمعاتها، كما مع النظام العالمي. وهنا تأتي خصوصيةُ مجتمعات الخير والتضامن في عوالم الإسلام. لا يزال للخير وفضائله دورٌ كبيرٌ بالداخل الاجتماعي، وبطرائق أفقية في مجتمعات المسلمين أو دولهم المتعددة. فعلى سبيل المثال؛ فإنّ البنوك الإسلاميَّة للتنمية والإعمار ـ ومن خلال الدول، أو الجمعيات الخيرية الكبرى ـ تتدخل لمكافحة الفقر، ويكون التدخل عادةً بإقامة مشروعاتٍ كبرى ووسطى للاستجابة لاحتياجات الشعوب المتزايدة.

* * *

وقد روى البيهقي عن أنسٍ بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (**كاد الفقر أن يكونَ كفراً**)، فالفقر بمثابة الكفر لأنه ـ وبوسوسات الشيطان ـ يدفع باتجاه ارتكاب الفواحش، وتجاوُز إنسانية الإنسان. ولذلك ـ ورغم سيطرة عالمية

السوق، ومن ثم سيطرة عالمية الفقر والإفقار ـ يظلُّ بوسع التضامن داخل المجتمعات المسلمة أن يؤدي دوراً مهماً في توفير الاحتياجات الأساسية من جهة، وفي الحفاظ على أخلاقيات العناية والرحمة من جهة أخرى؛ فلا تضطرب المجتمعات إذا توافرت ونشطت جهات الخير، وإذا قامت أنظمة الحكم الصالح. بل إنه ليس بعيداً أو مستحيلاً أن يظهر نظامٌ للخير ومكافحة الفقر والتطوير والتدريب على مستوى العالم الإسلامي.

بعد الآية الكريمة [البقرة: 268]: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ...﴾، تأتي الآية الكريمة: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 269]. ما معنى الحكمة هنا؟ إنها التدبير السليم أو التنظيم السليم الذي يجيد التعامل مع ضغوط الواقع؛ فلا يهلع لوسوسات الشيطان، ولا يستسلم لنظام الاستغلال الدولي؛ فينهض لوضع ما يلائم الحال من ضماناتٍ وحمايات، وبالاعتماد على الدواخل في الثقة والتضامن، في ظلّ فضل الله سبحانه وسعته: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].